القسم الأول

توطئة نظرية

أولا : النص الأدبى وإشكالية اختيار المنهج النقدى :

إن صح أن تطور أى جهاز نقدى لأية أمة ، هو فى الأساس يرتبط بتطوجهازها الإبداعى ذاته ، فإنه يصح أيضاً القول بأن الجهازين معاً مرتبطان فى تطورهما وتجددهما بتطور آخر متزامن معهما لأنه يعد الأساس لهما ، إنه التطور الفكرى لدى أية أمة تسعى لتطوير جهازيها الإبداعى ومن ثم النقدى (إن التجدد على المستويين معاً الإبداعى والنقدى يرتبط بمسيرة هذين الضربين من النشاط من جهة ، وبالتغيرات التى تطرأ على البناء الفكرى للأمة بصفة عامة ، وعلى علاقة المبدع والناقد –معاً – بالتغيرات التى تطرأ على العلاقات الاجتماعية [1]) .

وإذا تحدثنا عن المنهج النقدى لدى أية أمة ، فنحن نقصد بذلك مجموع الأسس النظرية (للتفكير والوسائل العلمية لدراسة أى علم فإن الحاجة إليه ماسة على المستوى الفكرى وعلى المستوى الأخلاقى فى آن. وكأن المنهج قيادة للفكر وقيادة للأخلاق فى نفس الوقت [2]) ، ومن هنا نادى كثير من المعنيين بقضية المنهج فى عالمنا العربى بضرورة إعادة مراجعة مناهجنا النقدية الحالية ، التى يعد معظمها أجنبياً مستجلباً ، وذلك من أجل البحث عن هويتنا فى منهج جديد [3] ، خاصةً إذا علمنا خضوع كل منهج عند نشأته إلى خصوصية تاريخية واجتماعية ، وانطواءه على فلسفة خاصة به فى بيئته الأولى كل هذا يعطى للمنهج قدراً نسبياً من الفعالية عند التطبيق فى عصر وظروف مختلفين لعصر وظروف نشأته الأولى ، لذا يجب عند مراجعة المناهج إدراك هذه الخصوصية ، ومن ثم إدراك النسبية فى كفايته الأدائية من حين إلى آخر 0 وتطوير المنهج على هذا الأساس لا يتم إلا على مستوى عناصره المتغيرة لا الثابتة [4] .

ونوع النقد نفسه كالمنهج يخضع هو الآخر لعدة مؤثرات تلابس ظهوره فى زمن ما وفى بيئة ما ، فالنقد مثل الفكر (ينتمى إلى نظام عصره

ومناخ عصره وثقافة عصره)[5]. فكلا الاثنين : "المنهج ، نوع النقد " يخضعان على نحو ما رأينا فى نشأته لخصوصية تاريخية وظروف أخرى تحكم نوع المنهج المستعان به من ناحية ، ونوع النقد من ناحية أخرى ، لكن من ناحية ثالثة فقد يتحكم نوع النقد نفسه فى المنهج المستعان، أى أن لكل نقد مناهجه الخاصة به .

فعلى سبيل المثال يمكن حصر تسعة مناهج مختلفة يتحكم فى اختيار كل ثلاثة منها نوع واحد من النقد ، فالنقاد (الذين يفسرون سوابق ظاهرة أدبية يتبعون المناهج التاريخية والاجتماعية والنفسية ، والذين يحللون النص نفسه يتبعون المناهج الموضوعية والشكلية والأسلوبية ، والذين يمثلون وجهة نظر الجمهور يتبعون المناهج العقيدية والانطباعية والتعديلية[6]) .

وعلى هذا فإن قضية المنهج بوصفها قضية تعنى بها نظرية المعرفة "الأبيستمولوجيا " قضية شائكة ومثيرة للجدل ، وهى بعد ذلك النقاش والجدل الكثيرحولها لم تُفرغ كل حمولتها [7]، ولم يصل فيها أحد إلى قرار أو كلمة أخيرة ، فليس هناك من بين المناهج المطروحة منهج واحد يسمح بالقول إنه (الصالح والدائم أو الأصلح والأدوم ، بإطلاق ، كما يظن كثير من الدارسين والمبتدئين منهم بصفة خاصة طالما أن المنهج هو ذلكم الوعى وتلكم الرؤية وذلكم الهدف [8]) 0

ورغم الجدل الثائر حول المنهج ، لا يمكننا نفى أهميته فى ذاته بوصفه معرفة نوع من الخبرة ، أو بوصفه منظومة متكاملة (تبدأ بالوعى والرؤيا المشكلية لروح المنهج وكنهه اللامرئى ، وتنتهى بالعناصر اللازمة لتحقيق ذلك الوعى وتلك الرؤيا من خلال الكشف والفحص والدرس والتحليل والبرهنة للإثبات أو النفى [9]) ، وإذا كنا لا نستطيع نفى أهمية المنهج فى ذاته (فإننا لا يمكننا أيضاً نفيه حين يستعين النقد به لأن النقد المنهجى القائم على أسس علمية وموضوعية ، يضيئ للنقد والناقد على السواء سبل

العمل والتقدم بخطوات ثابتة واثقة إلى الأمام 0 فلعل أهم فائدة للنقد المنهجى هو قضاؤه على التأثرية المحضة التى يصاب بها غالباً نقادنا 0 وكذا تعليله للذوق الفطرى الذى يكون غالباً ذوقاً غير مضبوط لقيامه على التأثرية [10]. فالنقد المنهجى بما يقوم عليه من " دقة ذهنية " [11] ضمان للحد من الطرطشات العاطفية والنزوات التأثرية فهو كقطب المغناطيس الذى يحول المتنافر والمتباعد من برادة الحديد إلى المتناسق والمتحدد فى إطار خاص وبُعد له حدوده .

وعلى المستوى الأعم تبدو الأهمية القصوى للنقد المنهجى حينما يقضى على الفوضى والمرض فى حياتنا الأدبية ويستبدل بهما نظاماً وعافية تشيع فى أوصال النشاط الأدبى والنقدى بعامة ، وماذا لو تصورنا غياب هذا النوع من النقد ، إننا إذاً سنشهد تعرض حياتنا (... لمآسٍ مهلكة، ونتائج زور ، وعاش الناس فى ضلال وأوهام [12]) .

لكنه يبرز لنا سؤال فى هذه المرحلة التى بدا فيها أهمية النقد المنهجى وهو : أى المناهج الأكثر ملائمة فى التناول النقدى ؟ ، وقد يفضى بنا هذا السؤال بل يواجهنا بأخطر القضايا ، التى لم يتوصل فيها إلى فصل حاسم فى إشكالها وهى قضية "الاختيار " فأى المناهج يختارها الناقد ؟!وكلما حاول أحد النقاد الإجابة عن ذلك السؤال باختياره منهجاً ما وظن عند هذا الاختيار أنه قد خرج من هذه المعضلة ، كلما وقع اختياره ذاك فى فخ "الأحادية " .

إن سيطرة منهج واحد هى فى أى دراسة نقدية غالباً ما تكون نتيجة لأحد سببين :

إما أن هذا المنهج هو فى حد ذاته موضة العصر ، وإما أن الناقد قد انبهر بأدوات هذا المنهج الجديد فأعجبته فطبقها على النصوص ودعا الآخرين إلى تطبيقها ، وهذان السببان أظن أنهما كانا ضمن غيرهما من

الأسباب التى دفعت بعض نقادنا فى مصر – فى العقود الثلاثة الأخيرة خاصة – إلى تبّنى رؤية منهجية أحادية ، غير ملتفتين إلى مجموعة من الملاحظات والقضايا التى تحكم اختياراتهم للمنهج الملائم ، وحتى إذا تم للناقد اختيار المنهج تبدو مشكلة ثانية من جهة أخرى ، وهى اختلاف النقاد فى تطبيقهم للمنهج الواحد . إذ يمكننا أن نخلص إلى أن : (يعتبر اختيار المنهج هو المشكلة الرئيسية فى مجال النقد الأدبى بل يكاد يكون مشكلته الوحيدة لولا ظهور الاختلافات الفردية عند تطبيق المنهج الواحد . وهذه الاختلافات الفردية ليست أقل حجماً من الخلافات المنهجية [13]) .

ولعل الأحادية تأخذ أشكالاً مختلفة لدى بعض المقاربات التطبيقية، وتبعاً لذلك نراها تفضى إلى نتائج قاصرة غير شاملة ، وقد تبدو حيناً عندما يتناول الناقد مجموع نتاج أديب ما بعقيدةٍ فكريةٍ مسبقة وهنا تغيب الموضوعية تحت أسر الأحادية .

وأظهر مثال على ما يمكن أن تفعله أحادية النظرة فى نقد ناقد ، ما رأيناه من أمر ما انتهى إليه بعض نقاد نجيب محفوظ من تناقض بعد دراستهم أدبه القصصى (فنحن نلتقى به عند باحث وقد صوره كاتب الاشتراكية الأول الذى وقف حياته وإنتاجه للدفاع عنها ، كما نلتقى به عند باحث آخر وقد أصبح كاتب الإسلامية الروحية [14]) .

وهذا مثال آخر يمثل ما فعلته الأحادية التى بدت من إقحام اتجاه واحد فى نقد أحد الشعراء القدماء وهو دراسة " العقاد " النفسية عن " أبى نواس " التى لم تقبل حماس الكثيرين فاتكاؤها على بعض الفرضيات النفسية وإسقاطها على " أبى نواس " مقابل إنحائه النصوص ذاتها ، جعلها دراسة عرجاء ، وفى ذلك يقول أحدهم :فإن معظم ما جاء به العقاد لم يكن مقنعاً فى حججه ويبدو أن سبب ذلك إنما يرجع إلى شمولية الحكم بعرض مصطلحات نفسية عائمة غير قابلة للإسقاط على شخصية أبى نواس مما

أدى به إلى فَقْدُ التوازن بين هذه المفاهيم النفسية وربطها بحياة الشاعر. ونتيجة لذلك (فإن هذه الدراسة جاءت بتأويلات تلقائية كتعليله للوازم التلبيس والعرض والارتداد ، من غير حجج مقنعة والتى لا تستند فى حكمها على استنطاق النتاج الفنى الذى يحتوى على وظائف نفسية قد تعيننا على استكشاف لاوعى الشاعر الذى يعكس سجله التاريخى، أما أن يكون الاعتماد كلية على وقائع الأحداث والأخبار التاريخية للشاعر بمعزل عن الإبداع الفنى فذلك ما يدعو إلى التقليل من أهمية التحليل النفسى الذى نهجه "العقاد" فى دراسته هذه الذى يتقبلها المنهج الحديث بنقد أصولها[15].

ذلك كان مثالاً لما يطرحه اتجاه نقدى " واحدى " من بعض الإشكاليات التى تعترض طريق نجاحه فى تحقيق نقد شعرى ناضج وأكثر إثماراً ، فأخطر نتائج هذه الأحادية كما جسدها لنا المثالان السابقان هو قصور الحكم وضياع التقويم السليم القائم على الموضوعية فى التناول وجعل النص الأدبى ذاته يقدم للناقد مسوغات تقويمه تقويماً صحيحاً ، أما أن يتعسف الناقد فى إدخال النص الأدبى داخل قالب ضيق عليه ويدعى بعد ذلك أنه يستطيع تقويمه فإنى أظن أن هذا التقويم ذا الأساس الواحدى يعد – كما سماه أحدهم – (ضرب من البلطجة الفكرية [16]) .

من هنا كانت ضرورة طرح تصور نقدي يتلافى عيوب النظرة الأحادية ، محاولا الإفادة من شتى المناهج المطروحة ؛ سواء أكانت مناهج خارجية تعنى بالسياق الخارجي للنص " تاريخيا واجتماعيا ونفسيا " أم داخلية تنطلق من العناصر الجمالية التي تحقق للنص أدبيته كاللغة التي عدت الآن خاصة لدى مدارس : النقد الجديد ، والأسلوبية ، والبنيوية ، والتفكيكية، ونظريات التلقي، وبالجملة نظرية الحداثة وما بعد الحداثة عدت . أي اللغة . مفتاح أستاذ يفتح على كل النصوص ، مفيدة من الكشوف اللغوية النظرية والتجريبية .

وهذا التصور الذي ألمحنا إليه هو ما حاولت تسميته " التكاملية " بوصفها اتجاها ينحو نحو الوسطية والتوفيقية لا التلفيقية ، وشمولية النظرة النقدية لا ضيقها إيمانا أن النص ذاته هو الذي يحدد مناهجه ، ولقد أنفق كاتب هذه السطور مؤلفين (17) في التأصيل لهذا الاتجاه التكاملي في النقد ، وتجربته تطبيقيا على بعض النقاد والنصوص .

ثانيا : إشكالية ترجمة المصطلح الأدبي :

إن قطار العولمة الثقافية الجبار قد انطلق دون توقف ، وبسرعة هائلة ،محطماً أمامه الحواجز الثقافية ،دافقاً لسيل من المعرفة والمعلومات ،جاعلاً إياها تنتشر من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، وهى فى حالة من الغزارة والسيولة عبر كل الأنابيب الثقافية بموجب ما يمكن تسميته بقانون الإستطراق المعرفى .

وفى ظل ما يحمله عصرنا من نزاعات تميل إلى الكوكبية والإتصال المباشر بين الأنا والآخر ، لم تعد حتى العلوم ذاتها خاصة العلوم الإنسانية تحتفظ بكامل خصوصيتهاواستقلالها ، إذ ظهر مايسمى بالمعرفة " البينية "- (18) ،التى جعلت دوائر العلوم كلها تتماس حيناً ،وتتداخل أو تتقاطع حيناً آخر ،لتفرز لنا ألواناً جديدة من المعرفة ، التى ولدت بعد تزاوج أو تلاقح بين هذه العلوم الإنسانية . أما النقد الأدبى فلم يسلم هو الآخر من ذلك الإمتزاج والتداخل المعرفى .فحديثاً شهدنا تصاعد درجات التبادل وتزايد علاقات التفاعل مابين النقد الأدبى وغيره من حقول المعرفة المغايرة ، سواء أفى الدرسات الإنسانية أم الإجتماعية أم العلوم الطبيعية ،وخصوصاً بعد أن انزاحت الحواجز التقليدية بين علوم الإنسان ومعارفه ، وتواصلت الحقول والمجالات فى شبكات علائقية من الدوائر التى لم تعرف الإكتفاء الذاتى(19) .

وكان نتيجة طبيعية لهذا التشظى المعرفى الإفراز المتزايد لعدد من المصطلحات التى أصبحت تشكل فى ذاتها ظاهرة ،نظراً لكثرتها أو لفوضويتها ، كما أصبح المتخصص فى حقل واحد من المعرفة بازاء طوفان من هذه المصطلحات ، لايدرى على وجه الحقيقة أصيلها من زائفها، حتى أصبح من المعتاد أن نقرأ جملة قد يتردد ذكرها ، مفادها : "إن المهتمين بالنقد العربى سئموا فوضى المصطلح التى تسود هذا النقد"[20]. وممعن النظر فى إشكالية المصطلح الأدبى خاصة يفتقد الدلالة التى يحسن عندها الوقوف كما يقول علماء النحو ، وتزيد الإشكالية حينما نلاحظ أن بعض هذه المصطلحات لم يعد صلباً أحادى الدلالة ، بل أصبح – إن صح استعارة التعبير المأساوى –مصطلحاً عنقودياً يمكن إن فككته أن ينفجر إلى مصطلحات أصغر وأبسط .

ولكن يجدر بنا أولاً أن نتساءل عن معنى لفظ " المصطلح " ومفهومه، ودلالة هذا اللفظ فى ثقافتنا العربية والأجنبية :

- إنه علامة لغوية linguistique signe خاصة ، تتميز عن غيرها بمفهوم يتضمن فكرة واحدة ثابتة فيه ،ويعرف بها خلافاً لمعانى الألفاظ المتعددة[21] .

فالمصطلح له دلالة ثابتة وواضحة عند أهل التخصص ، وهذا مايميزه عن غيره ، فمهومه من المعانى الخاصة ، ويسمى تجاوزاً "اللغة الخاصة" ليميز عن "اللغة العامة"، التى تحمل دلالات متعددة . وتحديد معنى المصطلح والاصطلاح عليه يناسب طبيعة وظيفته العملية، التى تعتمد على الدقة والوضوح فى الدلالة، ومن ثم خضع المصطلح العلمى للمواضعة الجماعية المتخصصة .

- والمصطلح فى البحث المعاصر وحدة لغوية ، أو عبارة لها دلالة لغوية أصلية ، ثم خصصت لمفهوم خاص ، ومحدد ، فى مجال علمى أو حقل من حقول المعرفة [22] .
- ودلالة المصطلح تقوم على فكرة واحدة تجتمع فيها المعلومات والصفات، التى تقيد المفهوم وتمنعه عن الدخول فى غيره ، فى لفظ أو تركيب موجز معبر عن مضمونه .
- والعلاقة بين مفهوم المصطلح ولفظه علاقة اعتباطية ، فالتواضع فى المصطلح واضح وأكيد خلافاً لمعنى اللفظ الذى لايعرف واضعه الأول . فقد وضعت المصطلح جماعة علمية تواضعت عليه ، ولا يحتمل الوضع فيه غير ذلك ،فليس المصطلح إلا رمزاً لمفهوم ذهنى تواضعت جماعة عليه ، والاتفاق عليه أقوى من تواضعهم على اللفظ العام [23].

وذهب بعض العلماء إلى وجود علاقة بين المفهوم الاصطلاحى وأصل معنى اللفظ الذى وضع له فى اللغة ، وهذه العلاقة تربط المصطلح بدلالته الأصلية فى اللغة .

قال الجرجانى (ت 816 هـ) فى المصطلح : "هو عبارة عن اتفاق قوم على تسمية شئ باسم بعد نقله عن موضعه الأول لمناسبة بينهما أو مشابهتهما فى وصف أو غيرها " ، ونقله عنه التهانوى فى معجمه [24]. والمصطلح بهذا المفهوم تطور دلالى لمعنى اللفظ ، ويدخل فيما عرف فى اصطلاح القدماء بالمُوَلَّد .

تفسر المصطلحات فى ساحة حقلها العلمى ، فهى مقيدة بحقولها المعرفية، وتفسيرها فى غير حقلها يزيد فى دلالاتها ماليس منها ، أو يعميها، وقد يقع فيها الخلط .

- والاصطلاح لغةً : الاتفاق ، وهو المعنى الذى تولد منه المفهوم الاصطلاحى : اتفاق طائفة على شئ مخصوص فى مجال علمى[25] .

أو اتفاقهم على وضع الشئ ، وقيل : إخراج الشئ عن المعنى اللغوى إلى معنى آخر لبيان المراد [26] .

وقد استخدم اللفظ أولاً بمعنى الاتفاق على شئ أو التواضع عليه، وقد جاء بهذا المعنى فى الحديث الشريف[27]. وكلام العرب ، ثم انتقل اللفظ من معنى الاتفاق العام على أمر من الأمور إلى الاتفاق على مفهوم خاص .وليس هذا تضييقاً فى دلالته ،بل تأكيداً على خصوصيته ، ورسوخه فى المعرفة ، ووضوح دلالته .

أما فى الإنجليزية فترجع كلمة term إلى الأصل اللاتينى: terma و termon والأولى بمعنى الهدف الذى تعدو إليه الخيل، والعلامة التى توضح مدى رميه القرص ، وانتهت إلى معنى النهاية . وقد انتشرت هذه المادة فى اللغات الأوربية ، فهى فى الألمانية: term ، وفى الإيطالية termine، وفى الأسبانية termino، وفى البرتغالية termo [28].

ونظرة عامة وسريعة لأسباب تعدد مفهوم أى مصطلح ينتمى إلى حقل من حقول العلوم الإنسانية : كالأدب ، واللغة ، يلحظ أنه قد يتعدد مفهومه لعدم الاتفاق عليه ، ولاصطلاح كل جماعة بمعزل عن الجماعات الأخرى بسبب صعوبة التواصل ، أو تحزب بعضهم لرأى دون الآخر . وقد يكون الاختلاف بسبب المذهب ، أو الثقافة ، أو السياسة . وقد يخطئ المفسر فى تفسير المصطلح ، فيفسد معناه لسوء الفهم ، أو عدم وضوح المصطلح ، أو الخطأ فى الترجمة ، أو التعصب لمذهب أو ثقافة . وقد يكون الخطأ مقصوداً تلبيساً ، وتعمية لمصلحة ، وهذا وارد فى المصطلح السياسى [29] .

وقد يتعدد مفهوم المصطلح تأثراً بفهم الواضع ، ومنهجه ، وقصده ، ويرجع هذا التعدد إلى أن المفهوم طرح عقلى ، يختلف باختلاف العناصر التى يقيم عليها الواضع اصطلاحه . وربما يرجع معنى المصطلح إلى غموض معنى لفظه ، أو إلى فهم الواضع ، ورؤيته ، والأسس التى يقيم عليها فكره ، وتعدد معنى اللفظ قد يرجع إلى عدم الفهم، ونسيان أصل الوضع ، وعدم اتفاق الواضعين على معنى واحد للفظ .

و المصطلحات العلمية الحديثة تضعها جماعة ، ويقر الوضع آخرون من أعلام هذا الحقل ويصطلحون عليه ، فوضع المصطلحات يقوم على المشاركة والإجماع على مفاهيمها غالباً .

– ومن المؤكد أن حركة الترجمة عن المناهج الحديثة الأوربية ، كانت أحد أقوى الأسباب ، فيما أصيب به المثقفون العرب من بلبلة ، واضطراب ، تجاه المصطلح الأدبى . ولكن ليست الترجمة ذاتها بوصفها نشاطاً علمياً هى المقصود ، فالترجمة – كما هو معلوم – وسيلة أساسية من وسائل التفاعل الثقافى المؤدى إلى استمرار تغذية ثقافة الأمة بما هو ضرورى لنموها ولمواصلة تفاعلها تأثيراً فى العالم وحواراً متصلاً معه دون انعزال ولاانكفاء على الذات ، ليس هذا هو المقصود ، بل ما اتصل بنشاط الترجمة فى ظنى قد خلق هذه المشكلة فى غياب دور من تنسيق الجهود . ونوجز هذه الأسباب فيما يلى :

1. أن جملة المصطلحات المشار إليها هى بالبداهة تحمل خلفيات أيدلوجية ، وفكرية ، ومذهبية ، تشكل مفاهيمها ومن ثم دلالتها عند أصحابها ، وبالأحرى هى نتاج ظروف اجتماعية ، وثقافية ، مغايرة لتربتنا الاجتماعية والثقافية . لذا يتعذر على مترجميها من العرب نقل المصطلح بدلالته الفكرية المحايثة للأيدلوجية التى أسهمت فى بلورته، لذلك يشترط أن لايكون مفهوم المصطلح غامضاً ، وان لا يحتمل

تخميناً لعدم وضوح فكرته ، وحدود أبعاده ، وقد يكون للغموض أبعاد مذهبية . ومن المصطلحات التى تحملت تبعات المذهبية مصطلح " التأويل " لما فيه من الاستبطان ، والاستنطاق ، والتخمين ، وهذه الأمور يحتملها تفسير النص ، فهو عند علماء البيان : نقل اللفظ من معنى إلى معنى آخر لعلاقة ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى . وقيل : نقل ظاهر اللفظ عن أصل وضعه إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ماترك ظاهر اللفظ . واستخدمه المفسرون بهذا المفهوم فقالوا : التأويل صرف الآية عن ظاهرها إلى معنى تحتمله ، إذا كان المعنى المحتمل الذى تصرف إليه الآية موافقاً الكتاب والسنة ، وهو حمل الظاهر على المحتمل المرجوح ، فإن حُمل لدليل فصحيح ، أو لما يُظن دليلاً ففاسد ، أو لا لشئ فعبث لا تأويل . وقد أبطل علماء الإسلام التأويل الذى يخالف ظاهر النص وباطنه ، مما لا تحتمله وجوه المعنى الذى يوافق الكتاب والسنة (30) .

وللتأويل معان أخرى ، تتعلق بالنص الدينى ، والبشرى ، تشبعت بمشارب ثقافية متعددة ، فصار المصطلح فى الدراسات الحديثة غامضاً ، وزاد تعثره تأثره بمفهوم الهرمنيوطيقا Hermeneutique الغربى، الذى أثار جدلاً بين النقاد فى تأويل النصوص . وقد حاول بعضهم ربطه بالتأويل عند بعض المفسرين ، وآخرون شبعوه بآراء الصوفية ، واستقر آخرون على أن يكون الهرمنيوطيقا بمعنى نظرية التأويل أو التأويلية ، وقد جاوز هذا المفهوم مفهوم المفسرين الأصوليين فى أوجه التفسير التى يحتملها النص ، فاستحال التأويل المعاصر مباريات جدلية ، ينتصر فيها كل حزب لنفسه حول مفهوم متشح بالغموض لغياب المعنى فى أعطاف الكلام ، والمحتجب بسحر العبارة ، وجمال الاستعارة، وطرافة الأسلوب(31) .

ومن ذلك أيضاً عدم وضوح المصطلح فى بيئته الأولى ، وعدم الاتفاق على وضعه لاختلاف المذاهب ، والمشارب ، والفترة الزمنية ، فيتسبب ذلك فى اضطراب مفهوم المصطلح . ومن ذلك الاختلاف حول المصطلحين phonologie ،Phonetics فى الدراسات اللغوية ، فقد استخدم دوسوسير المصطلح Phonetics بمعنى العلم التاريخى الذى يحلل الأحداث والتغيرات والتطورات فى اللغة ، واستخدم phonologie بمعنى العملية الميكانيكية للنطق ،وعده مساعداً للألسنية ،وتعده مدرسة براغ فرعاً من الألسنية يعالج الظواهر الصوتية ، ووظائفها اللغوية ، وهذا مخالف لما ذهب إليه دوسوسير ، الذى عده مساعداً فقط للألسنية . وتعد مدرسة براغ مصطلح Phoneticsعلماً مستقلاً ،خالصاً ، من العلوم الطبيعية ، يساعد فى الألسنية وليس منها وخصصت الألسنية الأمريكية مصطلح phonologie لبحث تاريخ الأصوات ، والتغيرات التى تطرأ عليها نتيجة تطورها، واستعملت مصطلح Phonetics فى بحث الأصوات الكلامية، وتبيين صفاتها، مخارجها،دون بحثها تاريخياً أو النظر فى تطورها . وتعد هذين المصطلحين من مصطلحات الألسنية .

وهناك فريق استخدمهما بمعنى واحد رافضاً الفصل بينهما ، فهما عنده فى حكم المترادفين ، لأن أبحاث كل منهما تعتمد على الأخرى، فأجاز أن يطلق أحدهما فى موضع الآخر .

وكان لهذا الاختلاف صداه فى الترجمة العربية ، والدراسات اللغوية ، فعلماء اللغة لم يتفقوا على لفظ واحد يقابل أحدهما فى العربية ، واختلفوا فى تصنيف العلم الذى خصص له أحدهما ، فمنهم من ترجم Phonetics بمعنى " علم الأصوات " وآخر بمعنى " الصوتيات"، وآخر "علم الأصوات اللغوية"، أو "علم الأصوات العام"، وبعضهم خشى الخطأ فى الترجمة ، فأبقى على اللفظ الأجنبى وعربه بمعنى "فوناتيك" . وترجم بعضهم

phonologie بمعنى : علم الأصوات ، وبعضهم اعتبر الجانب التاريخى فيه ، فقال : علم الأصوات التاريخى ، وبعضهم ترجمه بمعنى "علم الأصوات التنظيمى" ، وترجمه بعضهم بـ " علم وظائف الأصوات"، وترجمه آخرون بمعنى "علم التشكيل الصوتى" أو "علم الأصوات التشكيلى" [32] .

2. أن من يتعرض لترجمة مثل هذه المصطلحات ذات الأصول الأوربية، إنما ينقل فى الأساس – وكما أشرنا – مفهومه للمصطلح لا المصطلح ذاته ، لنا أن نتصور على سبيل المثال ترجمة أكثر من واحد لمصطلح بعينه ، فكل منهم ينقل مافهمه بحسب ثقافته الخاصة ، وأيدلوجيته ، التى قد تسهم بقدر ما فى توجهاته العملية ، فهناك مثلاً اختلاف شائع بين المشتغلين فى مجال النقد والعلوم الإنسانية ، فبعضهم يستخدم مصطلح العلوم الإنسانية ترجمة للمصطلح الإنجليزى Humanities ، وبعضهم يستبدل بهمصطلحاً آخر هو " العلوم الإجتماعية " ترجمة للمصطلح الفرنسى Sciences Humaines ، وهناك من يستخدمون مصطلح " علوم الروح " ترجمة للمصطلح الألمانى Geisteswissenschaften. وكل هذه المصطلحات تقضى إلى معنى واحد وهو العلوم الإنسانية ، وقد يبدو لدى ناقد بعينه مثل "ريكير" [33] الألمانى استخدام ترجمتين مختلفتين ، الأمر الذى يوحى باختلافهما، خاصة إذا تصورنا ترجمة أبحاث هذا الناقد إلى العربية .

ومثال ذلك أيضاً Deviation ترجم إلى أكثر من مصطلح عربى منها : الانحراف ، والانزياح ، والإزاحة ، والانتهاك ، والخرق، والغرابة ، والتغريب ، والإغراب ، والأصالة ، والمفارقة ، وإن كنت أرى أن المصطلح المعبر عنه فى العربية هو " العدول " ، لعدم وجود مفهوم الانحراف عن قواعد اللغة فى العربية ، بل توجد وجوه للقاعدة يختار منها

المؤلف مايميز أسلوبه ، وقد رجح مصطلح " العدول " بعض العلماء [34]

.

وبعضهم نحت مصطلحاً من اللفظ " سرد " و " Logy " الذى يدل على العلم ، فسماه " السردلوجية " ، وبعضهم استخدم اللفظ الأجنبى فسماه " الناراتالوجيا "[35] ' ويقصد بها السردية أو علم الحكى و القص .

ويتصل بهذا الخلط أن يكون هناك مصطلح قد استعير من حقل معرفى ، أو علم إلى آخر ، فيقع تداخل فى المصطلحات ، وهذا التداخل يتطلب معرفة بأصول هذه المصطلحات ، ومن ذلك – الإسقاط – La projection من مصطلحات العلوم الرياضية ، وعلم الفيزياء ، ثم دخلت الكلمة علم النفس التحليلى La psychanalyse[36]. وكذلك النقد النفسى .

3. ثم يأتى دور المتلقى ، الذى يتحكم رصيده الثقافى هو الآخر فى طريقة قبوله ، وتعرفه على المصطلح الوافد ، فهو لاشك أسير لمفهومه الخاص ، أو لما فهمه المترجم ذاته.

ولعلنا هنا نؤكد على ما ينبغى أن يكون عليه المترجم من إتقان صناعته، التى أهمها الإلمام التام باللغتين اللتين يعمل فى إطارهما ، ولقد أدرك علماؤنا من قبل ذلك الأمر ،واشترطوه فقال الجاحظ مشترطاً على المترجم " أن يكون بيانه فى الترجمة نفسها فى وزن علمه فى المعرفة نفسها ، وينبغى أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة ، والمنقول إليها ، حتى يكون فيهما سواء ، وغاية "[37].

4. وقد يمكننا إضافة القول بتعقد العملية النقدية ، والظاهرة الأدبية، فضلاً عن صعوبة تحديد فعل القراءة، أو التأويل، أو التلقى، وتعدد مستوياته، إلى جانب أن بعض مفاهيم المصطلحات تبدو شاسعة، لا يمكن محاصرة مدلولاتها[38] .

ورغم أن ما أصاب مصطلحنا الحديث من فوضى ، واضطراب، وألتواء ، أو غموض ، فإننا نجد رأيين الأول : يتناول أثر ذلك على واقعنا الثقافى برمته سلباً ، ويرى أن هذا الإضطراب فى المصطلح ، والكثرة فى الطرح المصطلحى المتزايد على الساحة الثقافية ، علامة مرض ، واضطراب ، وأزمة ، لما يحدثه المصطلح من قطيعة معرفية بين المثقفين أنفسهم فى مستوياتهم المختلفة ، ونشوء لون من الإنعزالية ، والإغتراب، لدى شباب المثقفين ، الطامحين ، الذين لم يستطيعوا التواصل مع النخب الثقافية ، التى فى رأيهم سكنت أبراجاً عاجية ، فى نوع من الإستعلاء على قرائهم من شباب الباحثين على وجه الخصوص ، الأمر الذى أصاب هؤلاء الباحثين الشباب بالإحباط ، فمنهم من آثر أن يلوذ بالصمت وهو دائم الشك فى أدواته الثقافية حيناً ، وفى استعداد جهازه الثقافى حيناً آخر ، ومنهم فئة أخرى حاولت الخروج من دائرة اتهام الذات ، وآثرت إيهام المجتمع بثقافتها، وهم فى ظنى "مرتزقة الثقافة"، الذين يتشدقون ، وينعقون، بمصطلحات النخبة دون فهم جيد ، ويتوسلون بما يرددون من مصطلحات حداثية ، لفظية ، إلى رضا النخبة بأندية الأدب والثقافة . والفئة الأولى فى تقديرى هى أحسن حالاً لمصداقيتها عن الثانية لكذب تجربتها .

والرأى الثانى يرى أن كثرة ما نشهده من مصطلحات متعددة الترجمة لمدلول واحد هى علامة صحة لا مرض ، بل إشارة عافية فى ثقافتنا، لأن ذلك يعكس فى الأساس حجم الزخم الثقافى ، والنشاط الفكرى، الذى يشهده المجتمع ،ولأن ذلك أيضاً عند بعضهم يعبر عن تعدد مستويات التلقى ،وتعدد فعل القراءة الذى طبعاً يختلف من باحث إلى آخر(39) ، فالتنوع والتعدد عند هؤلاء يثرى الظاهرة ، ولاينقص منها ، ويحقق الحرية ، والإستقلالية ، خاصة عندما لاتتعارض حرية الفكر مع أمانة النقل .

ولكن ماذا كانت نتيجة ذلك الإختلاف لا الخلاف ؟؟ إن نتيجة ذلك على المستوى التأليفى أننا وجدنا معظم – إن لم يكن كل المؤلفات الحديثة

خاصة فى علم اللغة النظرية أو التطبيقى منها ، وكذا المؤلفات التى تصدت للمناهج النقدية الحديثة – قد اضطر كل منها إلى أن يعقد فى ذيل الكتاب قائمة بما ورد من مصطلحات ، وردت فى تضاعيف الكتاب ، حتى يظل القارئ دائراً فى فلك المدلولات التى اختار المؤلف مصطلحاتها، وحددها ، لقارئ كتابه ، ولم يضطر بعض المؤلفين إلى هذا الصنيع بالطبع إلا حينما وجدوا تنوعاً -كماً وكيفاً- للمصطلح على الساحة الثقافية بين الأكاديميين أنفسهم ،فآثر أولئك المؤلفون بدلاً من الخوض مع الآخرين فى مناقشات جدلية أن تكون لهم مصطلحاتهم التى يفضلونها ، ويرونها – فى وجهة نظرهم – دالة على ما يقصدون من مدلولات ، خذ أى كتاب وتصفحه لاشك أنك واجد هذه الظاهرة ،التى تعنى عندى اعترافاً بوجود مشكلة ، وأزمة ، يهرب الأفراد والمؤلفون من التعرض لحلها ، أو مجابهتها ، ربما لأنهم يرون أنها أعقد من أن تحل ، أو لأنها أجدر بغيرهم منهم .

ومهما يكن من أمر فإن هناك إشكالية حول المصطلح ، قد فرضت نفسها ، فى العقود الثلاثة الأخيرة ، ومازالت مثيرة للجدل ، ومهما اختلفت الآراء حول كون هذه الظاهرة ، أو الإشكالية ، علامة مرض ، أو عافية ، فالملاحظ أن الكثيرين من المشتغلين بالثقافة والبحث العلمى على وجه الخصوص ،يريدون لها حلاً لا تستطيعه الأفراد ، وإنما يرى بعضهم أن ذلك يتطلب جهداً أجدر بالمؤسسات أن تنهض به ، وهذا الرأى هو ما أميل إليه وأنادى به .

إننا فى حاجة ماسة إلى إشاعة التصالح ، والجلوس لحوار ، بعد نبذ تعصب بعضنا لما يراه أصوب المفاهيم ، والترجمات ، وأدل المصطلحات ، فإذا كنا نريد ثورة ثقافية ، أو حتى نهضة ، فينبغى علينا التأسيس لها ، بتضافر الجهود ، لا تشتتها ، يجب البحث عما يشبه قطب المغناطيس ، الذى يحاول لم الشتات ، المتبعثر ، فى نسق متقارب منسجم بقدر الطاقة سبيلاً إلى حل نهائى ، من أجل تقريب المفاهيم ، بل تقريب هوة

الاختلاف ، ينبغى علينا الحفاظ على نوع من الوشائج التى تصل القمم والتلال ،أى النخبة المثقفة بمجتمع المثقفين شباباً وكهولاً .

وفى ظنى أن ذلك لن يكون إلا بتفعيل دور المؤسسات الثقافية ، تفعيلاً يجعلها تأخذ دورها فى قيادة الجماهير وإرشادها .

وأقترح هنا مشروعاً ضخماً لتوحيد المصطلح !! نعم توحيد المصطلح ولما لا ؟ خاصة وأننى أقصد بالتوحيد هنا التقريب قدر ما أمكن ذلك ، فلفظ " المصطلح " نفسه يعنى الإتفاق والتعارف ، نريد على سبيل المثال الجمع بين المصطلحات المتداولة ، وكانت فى الأصل إفرازاً لعصر الحداثة ، وما بعدها فى اللغة والأدب ، إن كانت تشير هذه المصطلحات جميعها إلى مدلول واحد ،وهذه خطوة يجب ألا تزعج أحداً فهى ليست فى الأصل جديدة أو غريبة ، فللأوروبيين سابقة فى ذلك ، فعلى سبيل المثال قد اتخذوا قراراً بشأن توحيد مصطلحى " السيميولوجية " الفرنسى ، و"السيموطيقا " الإنجليزى " ، فى مصطلح واحد هو " السيميوطيقا " بقرار اتخذته الجمعية العالمية للسيميوطيقا ، التى أنعقدت فى باريس فى يناير 1969م(40) .

ومن هنا تبدو أهمية دور الجماعة ، والمؤسسة الثقافية ، حكومية كانت أم أهلية ، فى النهوض بهذا المشروع ، بما تملك من أساتذة ، وعلماء متخصصين ، فى شتى فروع الثقافة ، وبما تأسست عليه من لجان فرعية ، متخصصة ،وبما تملكه أيضاً من وسائل نشر ، كالمجلات الثقافية ، والدوريات العلمية ، والمواقع الإلكترونية .

الهوامش

(1) مجلة فصول " الشعر العربى الحديث " ، المقدمة ، ص 4 ، التحرير / مج 7 ، ع 1 ، 2 ، أكتوبر 1986 م ، مارس 1987 م

(2) مجلة الكاتب ، بحث " نقد الشعر عند محمد مندور " ، د . جابر عصفور ، ص 10 ، ع 186 ، سبتمبر 1976 م .

(3) المنهجية فى الأدب والعلوم الإنسانية ، ت . ع . العروى وآخرون، من مداخلة د . حمادى صمود ، الناشر : دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 1 ، 1986 م .

(4) مجلة عالم الفكر ، بحث " إشكالية المنهج فى الخطاب النقدى العربى الحديث " ، ص 464 ، د . عبد العال بوطيب ، مج 23 ، ع2 ، ديسمبر 1994 م .

(5) المغامرة النقدية ، د . نعيم اليافى ، ص 11 .

(6) مناهج النقد الأدبى، ت. إنريك أندرسون إمبرت، ترجمة د . الطاهر أحمد مكى ، ص 105 ، دار المعارف ، ط 2 ، 1992 م .

(7) ظواهر نصية ، د . نجيب العوفى ، ص 6 ، عيون المقالات ، ط 1، الدار البيضاء ، 1992 م .

(8) خطاب المنهج ، عباس الجرارى، ص 73، منشورات السفير ، ط 1، 1990 م .

(9) نفسه ، ص 7 .

(10) راجع: أ – منهج البحث فى تاريخ الأدب، بقلم لانسون، ص 396 وما بعدها ، بكتاب النقد المنهجى عند العرب، مندور ، نهضة مصر ، د . ت .

ب – مجلة الكاتب ، بحث " نقد الشعر عند محمد مندور " ، ص 14 ، د . جابر عصفور ، ع 186 ، سبتمبر 1976 .

(11) مناهج النقد الأدبى ، ترجمة د . الطاهر مكى ، ص 5 .

(12) المذاهب النقدية ، د . ماهر حسن فهمى ، ص 9 .

(13) مجلة فصول ، مقال د . أحمد مجاهد ، ص 281 ، وذلك فى أثناء عرضه كتاب د . شكرى عياد " دائرة الإبداع "، مج 7 ، ع 1، 2 ، أكتوبر ، 1986 / مارس 1987 م .

(14) نجيب محفوظ، الرؤية والأداة، ت. عبد المحسن طه بدر ، ص 7 ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1987 م .

(15) الاتجاه النفسى فى نقد الشعر العربى ، د . عبد القادر فيدوح ، ص 165 – 166 ، منشورات اتحاد الكُتاب العرب ، دمشق ، سوريا ، 1992 م .

(16) نحو نقد أدبى معاصر ، ت . د . عيسى الناعورى ، ص 9 ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا – تونس ، 1981 م .

(17) أنظر :

أ – النص الأدبي بين إشكالية الأحادية والرؤية التكاملية ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، 2001 .

ب – المرايا المتحاورة ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، 2003 .

18) د/ جابر عصفور " آفاق العصر " ص56 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1997م .

19) د/ جابر عصفور " نظريات معاصرة " ص10 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب " مهرجان القراءة للجميع " 1998م .

20) من كتاب الشيخ بوقربة : " المفاهيم الشعرية فى النقد العربى الحديث " مجلة علامات فى النقد " ، جـ4 م10 ، ربيع الآخر ، 1422هـ . يونيو 2001م ، ص 321 .

21) الدكتور عبد السلام المسدى : قاموس اللسانيات ، منشورات الدار العربية للكتاب 1984م ، ص13 .

22) الدكتور محمود فهمى حجازى : الأسس اللغوية لعلم المصطلح ، دار غريب (د . ت) ص7 وما بعدها ، والدكتور محيى الدين محسب : نقل المصطلح اللسانى فى مطلع القرن العشرين ، دار الهدى للنشر والتوزيع ، المنيا ، مصر ، ط1 ، 2001/1 ، ص32 .

23) فرديناند دى سوسير : علم اللغة العام ، ترجمة الدكتور يوئيل يوسف عزيز ، بيت الموصل العراق ط1988/2م ص33 .

24) على بن محمد الجرجانى : التعريفات ، طبعة ليبتسج 1845م ، والتهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ، تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع ، وترجمة الدكتور عبد المنعم حسنين ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ،1382هـ ، 1963م ، مادة : صلح .

25) ارجع إلى المعنى اللغوى فى لسان العرب : مادة صلح .

26) أبو البقاء الكفوى : الكليات ، معجم المصطلحات والفروق اللغوية ، مؤسسة الرسالة ، ط1419/2هـ 1998م .

27) جاء فى صحيح مسند أحمد رحمه الله قول سعد بن معاذ للنبى صلى الله عليه وسلم : " اصطلح أهل هذه البحيرة ...." يريد المدينة .

28) د/ محمود فهمى حجازى : الأسس اللغوية لعلم المصطلح ص 8 ، 9 ، 10 .

29) بعض المصطلحات السياسية تحمل دلالات عديدة ، وبعضها غير واضح ، وبعضها مغاير للحقيقة ، ومن أمثلتها المصطلحات التى تتعلق بالصراع بين الدول نحو : الاستعمار ، الحرية ، الجهاد ، الإرهاب ،الديمقراطية ، الكفاح المسلح ، الدكتاتورية ، الشرعية الدولية ، وغير ذلك .

30) الموسوعة الإسلامية العامة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، 1424هـ / 2003م .

31) الحبيب بو عبد الله : مفهوم الهرمنيوطيقا ، الأصول الغربية والثقافة العربية ، مجلة فصول ، القاهرة ، العدد 65 ، 2004م
32) د/ أحمد مختار عمر، المصطلح العربى الألسنى ، مجلة عالم الفكر ، م20 ، 1989م ، ص584 ، 585 .
33) مجلة " فصول " ، آلن دوجلاس ، بحث المؤرخ والنص والناقد الأدبى ، ص98 ، مج4 ،ع1 ، ديسمبر 1983 ،راجع أيضاً : النص الأدبى بين إشكالية الأحادية والرؤية التكاملية ، د/ محمد عبد الحميد خليفة ، ص68 .
34) عبد السلام المسدى : الأسلوب والأسلوبية ، دار سعاد الصباح ، ط4 / 1993م ، ص 162 . وأحمد درويش ، الانزياح وتعدد المصطلح ، مجلة عالم الفكر م25 ، عدد3 ، 1997 .
35) فاضل ثامر : اللغة الثانية ، المركز الثقافى العربى ، بيروت ، ط1/1994 ، ص178 .
36) الأسلوب والأسلوبية ، ص165 ، 167 .
37) أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ : الحيوان جـ 1، تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة الحلبى ، ط1، 1938 ، ص75 ، 76 .
38) مجلة علامات فى النقد " المفاهيم الشعرية فى النقد العربى الحديث " لخضر قريش ، ص555 ، م12 ، جـ46 ، ديسمبر 2002م .
39) نفس المصدر ، ص553 .
40) مجلة " فصول " بحث السيميوطيقا مفاهيم وأبعاد ، د/ أمينة رشيد ص42 ، مج1 ، ع3 ، أبريل 1986 .